القنوط في القرآن الكريم

د. أحمد جلوب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد ...

فإن باب التفسير لا يمكن أن يغلق ؛ لأن القران رسالة حية ، حتى قيام الساعة ولا يزال المسلمون يقبلون عليه يتدارسونه ويثيرونه ، ويتحركون به ، ويعيشون في ظلاله حتى قيام الساعة .

واستشرافا لبركة الوحي وأنوار التنزيل وسعيا لخدمة كتاب الله عقدت عزمي فآثرت أن يكون موضوع بحثي :

(القنوط في القرآن دراسة موضوعية)

حيث إن دراسة موضوع من موضوعات القرآن على أسس وخطوات التفسير الموضوعي تجعل القارئ يقف على أسلوب القرآن في معالجة المشاكل والموضوعات المتعددة ، وتكمن أهمية هذا النوع من الدراسة في حل مشكلات المسلمين المعاصرة على أساس من القرآن ومن هنا تظهر الحيوية الواقعية للقرآن .

ولموضوع القنوط أهمية كبرى وأثر خطير على حياة الفرد والجماعة في الزمن القديم وفي العصر الحديث إذ كم يعاني الناس ومن ثم الأمة عندما يغيب عنها الأمل والتفاؤل ويحل محلها ، اليأس والقنوط من هنا تبرز أهمية هذا الموضوع .

وإن سبب اختياري للموضوع يرجع لأمرين :

الأول : هو الإسهام في رد الفرد والأمة إلى ربهم عن طريق ممارسة التوبة والعمل الصالح متجنبةً اليأس والقنوط غير ملتفتة لما تراه من البون الواسع من عدم التكافؤ في القدرات بين ما عليه المسلمون وما عليه قدرات أهل الظلم .

والثاني : فلأن التفسير الموضوعي أدعى من غيره لإيصال التوجيه وقوة التأثير فالبحث فيه يجعلنا نقف على خطواته وأسسه التي يقوم عليها فنقوم ما يحتاج إلى تقويم . وأتّبعت في هذه الدراسة خطوات التفسير الموضوعي المعروفة وحاولت جاهدا أن أُبيّنَ وأطبّق هذه الخَطوات إذ جمعت الآيات التي تناولت لفظ (القنوط) ورتّبتها حسب تأريخ نزولها وأعطيتها عناوين تناسب مضمونها ثم شرعت بدراستها . وأملى عليّ هذا المنهج أن تكون خطة بحثي مقسمة على مبحثين وخاتمة غير هذه المقدمة .

المبحث الأول : مفهوم القنوط وحكمه .

المبحث الثاني : القنوط في السياق القرآني .

واعتمدت في هذه الدراسة على مصادر ومراجع متعددة تمثلت في كتب التفسير والقراءات والمعاجم اللغوية ، وأسباب النزول ، والحديث وغيرها وقد ذكرتها بأوصافها الكاملة في فهرست المصادر والمراجع .

وأخيرا اسأله سبحانه أن يجعل عملي – هذا – خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به المسلمين إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ...

الباحث

المبحث الأول

مفهوم القنوط وحكمه

المطلب الأول

القنوط في اللغة والاصطلاح والألفاظ المرادفة له

أولا : تعريف القنوط في اللغة والاصطلاح :

الجذر الثلاثي للقنوط هو : (قنط) .

القنوط لغة : مشتق من الفعل الثلاثي (قنط) وهو كلمة صحيحة تدل على اليأس يقال : قَنِط من الرحمة ، يَقنِطُ ، و يَقنَطُ (بكسر النون وفتحها) ، قنوطا وهو قانط وقنوط ، وتقول : قلب المؤمن بالرجاء منوط ، والكافر آيس قنوط (١) .

والقنوط : هو اليأس من الخير ، وقيل : أشَدُّ اليأس من الشيء . ويقال : شرُّ الناس الذين يُقنّطون الناس من رحمة الله أي : يوئسونهم(٢) .

القنوط اصطلاحاً : انفعال بدني من أثر اليأس وهو انكسار وتضاؤل(٣) .

---

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة (لابن فارس) : ٣٢/٥ ، واساس البلاغة للزمخشري ، ٥٢٤ .

(٢) ينظر : العين (للخليل بن احمد الفراهيدي) : ١٠٥/٥ ، ومعاني القران (للنحاس) : ٨٨/٤ ، ومفردات الفاظ القران (للاصفهاني) : ٦٨٥ ، ولسان العرب (لابن منظور) : ٣١٦/٧ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير (لابن عاشور) : ٣٨٣٣/١.

وقال النسفي في تفسيره للقنوط : هو يأس مفرط يظهر أثره في الشخص فيتضاءل وينكسر أي : مبالغ في قطع الرجاء من فضل الله ورحمته(١) . والمعنى متقارب ويمكن لي – على ما يبدو – أن أوفق بين التعريفين .

فأقول : القنوط اصطلاحا : انفعال بدني من أثر اليأس المفرط يظهر أثره على الشخص ، فيتضاءل وينكسر لمبالغته في قطع الرجاء من فضل ورحمته .

ثانياً : الألفاظ المرادفة للقنوط في اللغة :

اليأس : لمادة يأس معنيان :

الأول : قطع الرجاء أو قطع الأمل ، ويأس ، ييئس ، كـ (منع ، يمنع ، وضرب ، يضرب) ، وهو يؤس ، يقال منه : يَئِس ، يَيئس ، على وزن فعل ، يفعل ويقال: إنه ليست ياء في صدر كلمة بعدها ياء إلا هذه الكلمة.

والثاني : بمعنى العلم فقولنا : ألم تيأس أي : ألم تعلم وقالوا في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : أفلم يعلم(٢) واليأس بن مهند أول من

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٤/٩٥.

(٢) ينظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس : ٦/١٥٣ ، والقاموس المحيط (للفيروزابادي) : ١/٧٥١ ، والمعرب (للجواليقي) : ١/٥٢ .

اليأس (بتحريك الهمزة) أي : السِلُّ ، وقولنا : أيأسته ، وآيستهُ أي : قنّطتهُ(١) .

واليأس : انتفاء الطمع يقال: يَئِسَ، وأستيأسَ مثل: عجَب ، واستعجبَ (٢) قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ (٣) ، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (٥) .

الإبلاس : من بَلِسَ (بكسر اللام) ، وقولنا أبلس الرجل أي : يئس وندم ومنه اشتق اسم (إبليس) قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٦) ونحو قوله تعالى : ﴿ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ (٧) وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ (٨) ، ولما كان المبلس

---

(١) لسان العرب : ٢٥٩/٦ .

(٢) مفردات الفاظ القران للاصفهاني : ٨٩٢ .

(٣) سورة يوسف من الاية : ٨٠ .

(٤) سورة يوسف من الاية : ١١٠ .

(٥) سورة الممتحنة من الآية : ١٣

(٦) سورة هود من الاية : ٩

(٧) سورة الروم الآية : ١٢

(٨) سورة الانعام من الاية : ٤٤

كثيرا ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه قيل: أبلس فلان ، إذا سكت وإذا أنقطعت حجته (١).

والابلاس : الانكسار والحزن (٢) .

وعند النظر إلى المعنى اللغوي **للقنوط** والمعنين المرادفين له وهما اليأس والابلاس نخرج بالمعاني الأتية : فمعنى (القنوط) هو اليأس ، وشدته والإفراط فيه ، واليأس هو قطع الأمل ، والقنوطُ والإبلاس هو اليأس مع الندم والحزن وهذه المعاني – كلها على ما يبدو متقاربة ومترادفة ، غير أن القران يستعمل كل لفظ في مكانه المناسب إذ لا ترادف في كلمات القران ذات الألفاظ المختلفة والمعنى المتقارب عند علماء التفسير على الرأي الراجح ، فاليأس والقنوط والإبلاس ، وان كانت معانيها متقاربة إلا أن كل لفظ يستعمل في سياقه المناسب ولذا فإن القرآن قد فرق بين صفة اليأس وصفة القنوط ، فالقنوط أشد من اليأس وكأن اليأس مرحلة من مراحل القنوط . والقنوط هو يأس مفرط هذا ما سنراه عند استعراض هذه الكلمات في سياقها القرآني .

---

(١) سورة الروم : ٤٩ .

(٤) مختار الصحاح (للرازي) : ٢٦/١ .

المطلب الأول

أسباب القنوط وآثاره

للقنوط أسباب كثيرة وآثار عظيمة على العبد فيما يأتي بيانها :

اولاً : اسبابه : إن من أهم الأسباب التي تجعل الإنسان قانطا أو يائسا ما يأتي:

١. إعتقاد الإنسان أن الله تعالى غير قادر على الكمال .
٢. ظن الإنسان أن الله تعالى غير عالم بجميع المعلومات .
٣. جهل الإنسان بكرم الله سبحانه ونسبة البخل والعجز إليه – تعالى الله – عن ذلك وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، وإن اليأس والقنوط ، لا يحصل إلا عند احد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ، فاليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا لعدم علمه بالله تعالى وصفاته ، اما المؤمن بالله العارف به فلا يقنط في حال من الأحوال لأن رحمة الله وسعت كل شيء(١) .
٤. اعتقاد الإنسان إن الله لا يغفر له إما :
   أ. لكونه إذا تاب لا يقبل الله التوبة منه .

---

(١) ينظر الفقه على المذاهب الأربعة : ٥/١٣٤٠ ، (القسم السادس) كتاب الكبائر من الذنوب ، وموسوعة المسلم في التوبة والترقي: ١/٥٨٢ .

ب. وأما أن لا تطاوعه نفسه على التوبة بل هو مغلوب معها والشيطان قد استحوذ عليه فهو ييأس من توبة نفسه ، وان كان يعلم انه إذا تاب غفر الله له ، والقنوط يحصل بهذه تارة وبهذا تارة أخرى (١) .

فالأول : كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له ، فقتله وكمل به مائة . ثم دل على عالم فأتاه فسأله فأفتاه بان الله يقبل توبته كما في الحديث الصحيح (٢) .

والثاني : كالذي يرى للتوبة شروطا كثيرة ويقال له : لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب (٣) .

ثانياً : أثر القنوط على العبد :

للقنوط من رحمة الله اثر خطير في حياة العبد ، لأن العبد إذا شعر انه لا سبيل إلى رحمة الله أو رضوانه فانه سيكثر من الذنوب المشتهاة ، ولأن الدنيا تصبح في نظرة ميدانه الوحيد إذ لا أمل له من النجاة في الآخرة ، فيفقد الأمل والرجاء واللذان وجودهما في القلب من لوازم الإيمان وفقدانهما من لوازم الكفر قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (٤) ، ثم

---

(١) المصدر نفسه : ٥٨٧/١ .

(٢) صحيح مسلم : ٢١١٨/٤ باب قبول توبة القاتل وأن كثر قتله ، رقم (٢٧٦٦) .

(٣) موسوعة المسلم في التوبة والترقي: ٥٨٥/١

(٤) سورة يوسف : ٨٧ .

يصرفه ذلك عن التوبة ولذلك عدّ القنوط واحدا من دواعي الإصرار على الذنوب وانه من الآفات الصارفة للعبد عن التوبة (١) .

المطلب الثالث

حكم القنوط

القنوط من رحمة الله من الذنوب الكبائر لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ والمراد بالروح هنا : الرحمة والفرج كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (أكبر الكبائر الإشراك بالله عز وجل والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله)(٢) ، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٣) قال المفسرون يغفرها بالتوبة بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (٤) وهذا لكل تائب من الشرك أو المعاصي وقالوا أيضا :

---

(١) ينظر : موسوعة المسلم في التوبة والترقي : ١/٨٣ .

(٢) مصنف عبد الرزاق : ١٠/٤٥٩ ، باب الكبائر رقم (١٩٧٠١) .

(٣) سورة الزمر الاية : ٥٣ .

(٤) سورة الزمر الاية : ٥٤ .

يغفرها أيضا بالمشيئة ولو بدون توبة – إلا الشرك – وهذا ليس لكل احد ولكن لمن يشاء لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١) وعلى ذلك فالقنوط من رحمة الله متناقض مع نصوص القران ومتناقض أيضا مع صفات الله تعالى الذي وصف بها نفسه بالرحمة ، والعفو والمغفرة ، والفضل قال تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (٣) وقال : ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ (٥) وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٦) وقال وقال جلّ وعلا في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ (٧) وقال جلّ جلاله : ﴿لقد لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا

---

(١) سورة النساء من الاية : ٤٨ .

(٢) سورة الاعراف من الاية : ١٥٦ .

(٣) سورة النجم من الاية : ٣٢ .

(٤) سورة البقرة من الاية : ١٠٥ .

(٥) سورة التوبة من الاية : ١٠٤ .

(٦) سورة النساء الاية : ١١٠ .

(٧) سورة النساء الاية : ١٤٥ ، ١٤٦ .

يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١) ثم قال بعد ذلك: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢) قال الحسن عن هذه الآية : انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة (٣) . فالقنوط من رحمة الله واليأس من روحه محرم ومن الكبائر (٤).

---

(١) سورة المائدة الاية : ٧٣ .

(٢) سورة المائدة الاية: ٧٤ .

(٣) تفسير القران العظيم ــ لابن كثير : ٥٩/٤ .

(٤) ينظر : الفقه على المذاهب الاربعة : ٣٤٠/٥ ، والقسم السادس (كتاب الكبائر وموسوعة المسلم المسلم في التوبة والترقي : ٥٨٢/١).

المبحث الثاني

القنوط في السياق القرآني

وردت اشتقاقات مادة (قنط) في القران ست مرات[١] كلها نزلت في مكة باستثناء قوله تعالى : ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾(٢) من سورة الزمر فإنها نزلت في المدينة ، وفيما يأتي إشتقاقات مادة (قنط) حسب ترتيب نزولها في القرآن (٣) .

الأولى : (القانطين) إسم فاعل من الفعل (قَنطَ) حيث أخبر القران فيه عن حال سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما بشرته الملائكة بالولد وذكرته أن لا يكون من القانطين وان لم يكن هو قانطا إذ كيف يكون له ذلك وهو نبيٌّ فقال تعالى: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ (٤) .

الثانية : (يقنط) فعل مضارع من (قنط) إذ استفهم سيدنا إبراهيم عليه السلام مستنكرا القانطين من رحمة الله بعد أن تذكر فهو على ما يبدو جوابا

---

(١) ينظر : معجم الفاظ القرآن للأيمن عبد العزيز : ١٤٣

(٢) سورة الزمر من الاية: ٥٣

(٣) ينظر : الاتقان في علوم القران – للسيوطي : ٩/١ .

(٤) سورة الحجر الآية : ٥٥ .

لقولهم : ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾(١) .

الثالثة : (يقنطون) فعل مضارع من (قَنَطَ) أيضا ، حيث بين القرآن حال القانطين من الناس لاقترافهم السيئات فقال : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (٢) .

الرابعة : (قنوط) اسم مصدر من الفعل (قَنَطَ) فقد اخبر الله فيه عن حال الإنسان إذا أصابه الخير فذو دعاء عريض وإذا مسه الشر فيؤس قنوط . فقال : ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ (٣) .

الخامسة : (قنطوا) فعل ماضٍ من (قَنَطَ) حيث أخبر القران فيه عن إنزال الغيث ونشر رحمة الله على القانطين واليائسين فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الحجر الاية : ٥٦ .

(٢) سورة الروم الآية : ٣٦ .

(٣) سورة فصلت الآية : ٤٩ .

(٤) سورة الشورى الآية : ٢٨ .

السادسة : (تقنطوا) فعل مضارع من (قَنَطَ) إذ خاطب الله فيه المسرفين من عباده ألّا يقنطوا من رحمته لأن الله واسع المغفرة والرحمة فقد شملت رحمته كل شيء فقال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

وبعد عرض مشتقات مادة (قنط) في القران سنقف وقفة موضوعية مع هذه التصريفات الستة ضمن سياقها القرآني لنستخلص منها بعض الدلالات واللطائف والإشارات وقد اقتضى هذا العرض أن قسم هذا البحث إلى خمسة مطالب ، حسب تأريخ نزول آياتها .

المطلب الأول

البشرى ذكرت إبراهيم عليه السلام بالموعظة

قال تعالى: ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ج قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ قوله بشرناك بالحق ، يحتمل أن تكون الباء فيه صلة أي : بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه ، أو بشرناك بطريقة هي حق وهي قول الله ووعده على أن يوجد ولدا من غير أبوين فكيف من شيخ

---

(١) سورة الزمر الآية : ٥٣ .

عجوز عاقر (١) . والمعنى : قال الملائكة لإبراهيم عليه السلام بشرناك بحق ويقين وعلم منا بان الله قد وهب لك غلاما ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي : من الذين يقنطون من فضل الله فييأسون منه ولكن بما بشرناك به اقبل البشرى(٢) ، وكان إبراهيم عليه السلام قد آيس من الولد لفرط الكِبرَ (٣). لا لقنطه ، والآية هي جواب الملائكة (لإبراهيم عليه السلام) فقد بشروه بالخبر الحق إبطالا لاستفهامه (عليه الصلاة والسلام) بقوله : (فبم تبشرون) فكلام الملائكة رد لكلامه وليس جوابا على استفهامه لان استفهامه غير حقيقي ثم نهى الملائكة إبراهيم عليه السلام أن يستبعد أن يكون له ولد لان استبعاد ذلك يعني استبعاد رحمة الله فقالوا : ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ لأنه لما كان إبراهيم عليه السلام منزهاً عن القنوط من رحمة الله جاءوا في موعظته بطريقة الأدب المناسب فنهوه عن أن يكون من زمرة القانطين ، ولم يظنوا أن يكون هو قانطا لرفعه نبوّته عن ذلك وهو في هذا المقام كحاله في مقام ما قاله الله عنه من قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن

---

(١) الكشاف (للزمخشري) : ٦٤٢/١ .

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل آي القران (للطبري) : ٤٠/١٤ .

(٣) الجامع لاحكام القران (للقرطبي) : ٢٢٣/١٢ .

قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (١) وهذا النهي أي قوله ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ كقوله تعالى لنوح عليه السلام ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢) . وقد ذكّرته الموعظة مقاما نسيه فقال عليه السلام : ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ . وهو استفهام إنكار في معنى النفي ولذلك استثنى (الضالون)(٣) والمعنى أن إبراهيم عليه السلام قال للضيف ومن ييأس من رحمة الله إلا القوم الذين أخطأوا سبيل الصواب وترك قصد السبيل في تركهم رجاء الله ولا يخيب من رجاه فضلوا بذلك عن دين الله(٤).

والذي يديم التفكير والنظر في الآية المتقدمة يخرج بدلائل ولطائف مفيدة مفادها ما يأتي :

١. الأنبياء والرسل هم أكمل الناس خلقا وخُلقا وهم القدوة والأسوة الحسنة للبشرية إذ لا تليق بهم صفتي اليأس والقنوط ولذا فأن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يقنط وإنما استبعد أن يكون له ولد لكبر سنه كما هو المعتاد فالقنوط صفة ذميمة لا تليق بالعبد فكيف تليق بالنبي أو الرسول ؟ .

---

(١) سورة البقرة الاية : ٢٦٠ .

(٢) سورة هود الاية : ٤٦ .

(٣) ينظر : تفسير التحرير والتنوير (لابن عاشور) : ٧/ ٦٠ .

(٤) جامع البيان في تأويل القران (للطبري) : ١٤/ ٤ .

٢. اليأس والقنوط صفة ملازمة للشيطان ومنها اشتق اسمه (إبليس) من الابلاس وهو اليأس والقنوط وهما صفتان ملازمتان حيث إنه يئس وقنط من رحمة الله .

٣. إن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ على ما يبدو جاء بعد التذكرة والموعظة التي نسيها بعد قول الملائكة له : ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ .

٤. إن الأنبياء والرسل بشر ينتابهم ما ينتاب البشر من النسيان ومما اعتاد عليه الناس في بعض أمورهم ، ولكن الله يسدد لهم ، لان مقام النبوة والرسالة مقام رفيع فهما القاعدة والأساس اللذان قام عليهما الدين .

فعلينا أن نقتدي وأن نعتبر ونتذكر بما اعتبر وتذكر به أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام فلا نيأس أو نقنط من رحمة الله رب العالمين .

المطلب الثاني

قنوط الناس لاقترافهم السيئات

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ وفي قوله تعالى (رحمةً) اقوال منها : انها تعني الخصب والسعة والعافية قاله : يحيى بن سلام ، وقال النقّاش : يعني النعمة والمطر ، وقيل : الأمن والدعة ، وأيا كان فالمعنى متقارب (يفرحوا بها) أي : بالرحمة: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي : بلاء وعقوبة قاله مجاهد ، وقال السدّي : قحط المطر: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي : بما عملوا من المعاصي: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ قال الحسن : إن القنوط ترك فرائض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في السر(١).

والآية صفة للكافر ، يقنط عند الشدة ويبطر عند النعمة . كما قيل :

كحمار السّوء إن أعلفته رمَحَ (٢) الناس وإن جاع نهق (٣)

---

(١) النكت والعيون : للماوردي : ٣١٥/٤ ، والجامع لاحكام القران (للقرطبي) : ٣٣٤/١٦ .

(٢) رمح : أي ضرب الناس بحافره ، ينظر: اللسان (لابن منظور) : ١٧٢٥/٣ ، مادة (رمح)

(٣) قاله مسكين الدارمي وهو في الشعر والشعراء (لابن قتيبة) ٥٤٤ ، وبهجة المجالس لابن عبد البر : ١٠٤/١ وخزانة الادب (للبغدادي): ٧٠/٣ .

وكثير ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه بهذه المثابة ، أما المؤمن يشكر ربه عند النعمة ويرجوه عند الشدة فقوله (فرحوا بها) وصف لحال الناس عندما تصيبهم الرحمة ليبنى عليه ضده في قوله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ لما يقتضيه القنوط من البطر ونحوه لانه عدول عن الظاهر بلا داع .

والمعنى : إنهم كما يفرحون عند الرحمة ولا يخطر ببالهم زوالها ولا يحزنون من خشيته فكذلك ينبغي أن يصبروا عندما يمسهم الضر ولا يقنطون من زواله لان قنوطهم من زواله ليس على قياس حالهم عندما تصيبهم رحمة حين لا يتوقعون زوالها ، فالقنوط هو محل الانكار عليهم ، وقوله : ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لتنبههم إلى أن ما يصيبهم من حالة سيئة في الدنيا إنما سببها افعالهم التي جعلها الله أسبابا لمسببات مؤثرة لا يحيط بها إلا الله ، فعلى الناس أن يحاسبوا أنفسهم . وعند امعان النظر والتفكير فيما تقدم من النص الشريف .

يمكن لنا أن نستنبط بعض اللطائف والدلالات لتكون منارات هداية ومثابات استقامة وهي كالآتي :

١. قوله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هو جواب الجزاء لان (إذا) نائب عن الفعل بدلالتها عليه فكأنه قيل : وإن تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم وجدتهم يقنطون أو تجدهم أو رأيتهم .
٢. هذه الآية تبين صفة من صفات الكافر فهو يبطر عند النعمة ويقنط عند الشدة ولا يشكر في الأولى ولا يحتسب في الثانية .

٣. الأداة (إذا) في قوله تعالى ﴿إِذَا هُمْ﴾ جاءت لمفاجأة جواب الشرط إذ إنها نابت عن الفاء لتآخيهما في التعقيب وفيه دليل على سرعة قنوطهم بعد إصابتهم بالبلاء مباشرة .

٤. الفرح الوارد في قوله تعالى ﴿إذا هم يفرحون﴾ هو فرح البطر الذي لا شكر فيه وليس الفرح المشروع .

من هذا يتبين أن صفة التوازن في شخصية الإنسان المؤمن مطلوبة في كل الأحول والأوقات عند المصيبة والبلاء والسّعة والعافية فلا ييأس ولا يقنط ولا يجزع ولا يفرح فرح بطر يبعده عن طاعة الله بل عليه أن يكون عبدا طائعا مسّلما أمره لله خالقه وخالق أفعاله في السراء والضراء .

المطلب الثالث

الإنسان بين الدعاء والقنوط

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ .

(لا يسئم الإنسان) أي : لا يمل من دعائه بالخير والخير هنا : المال وهذا ما تؤكده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه إذ قال : (لا يسئم الإنسان من دعاء

المال)[١] فهي وان كانت قراءة شاذة لكن يمكن الاستفادة منها في مجال التفسير . وكذا يراد بالخير : الصحة والسلطان والعز . (والإنسان) ههنا يراد به : الكافر قاله السدّي[٢] وقيل : يراد به الوليد بن المغيرة . وقيل يراد به : عتبة وشيبة أبناء ربيعة وأمية بن خلف[٣] والقول الأول هو الراجح لان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب إذ هو يشمل كل من كانت هذه صفته كما أن القنوط يعد كبيرة من الكبائر كما بينا [٤] . فأما الإنسان لا يسئم من دعاء الخير أي : لا يكتفي فأطلق على الاكتفاء بالسآمة وهي الملل[٥] والمعنى : لا يمل .

﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي : الفقر والمرض (فيؤس) أي : من روح الله ، (قنوط) من رحمته [٦] . وقيل (يؤس) : أي من إجابة الدعاء ، (قنوط) بسوء الظن بربه [٧] . وقيل (يؤس) أي : يأس من زوال ما به من (قنوط) أي : يظن انه يدوم [٨] . والمعنى متقارب " انه رسم دقيق

---

(١) ينظر : الكشاف (للزمخشري) : ٤٥٧/٣ ، الجامع لاحكام القران (للقرطبي) : ٤٣٤/١٨ ، القراءات الشاذة (لابن خالويه) : ١٣٣ .

(٢) ينظر النكت والعيون (للماوردي) : ١٨٨/٥ .

(٣) الجامع لاحكام القران (للقرطبي) : ٤٣٤/٨ .

(٤) ينظر ص من هذا البحث .

(٥) تفسير التحرير والتنوير (لابن عاشور) : ٣٨٣٣/١ .

(٦) معالم التنزيل (للبغوي) : ١١/٤ .

(٧) النكت والعيون (للماوردي) : ١٨٨/٥ .

(٨) الجامع لاحكام القران (للقرطبي) : ٤٣٥/٤ .

للنفس البشرية التي لا تهتدي بهدى الله فتستقيم على الطريق ، رسم يصور تقلبها وضعفها ومرائها ، وحبها للخير ، وجحودها للنعمة ، واغترارها بالسراء ، وجزعها من الضّراء ، رسم دقيق عجيب ، هذا الإنسان لا يسأم من دعاء الخير فهو ملّح فيه مكرر له يطلب الخير لنفسه ولا يمل ، وان مسه الشر مجرد مس ، فقد الأمل والرجاء وظن أن لا مخرج له ، ولافرج وتقطعت به الأسباب ، وضاق صدره وكبر همه ، ويأس من رحمته ، وقنط من رعايته ، ذلك أن ثقته بربه قليلة ورباطه به ضعيف"(١).

وبعد هذا العرض يمكن لنا أن نستنبط بعض اللطائف والدلالات من الآية الكريمة وهي كالاتي :

١. التعبير عن دوام طلب النعمة بعد السآمة .
٢. التعبير عن محبة الخير بدعاء الخير .
٣. التعبير عن إضافة الضر بالمس بـ (إن) التي من شأنها أن تدخل على النادر وقوعه فان إصابة الشر للإنسان نادرة بالنسبة لما هو مغمور فيه من النعم .
٤. التعبير عن إضافة الضر بالمس الذي هو أضعف إحساس الاصابة نحو قوله تعالى: ﴿ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢)

---

(١) في ظلال القران : ٧/٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٢) سورة الزمر الاية : ٦١ .

٥. صيغة المبالغة في (يؤس ، قنوط) تبين مدى مبالغة الإنسان في حال اليأس والقنوط من خلا تكرار اليأس والقنوط اولا وثانيا لان صيغة المبالغة جاءت على وزن فعول .

٦. يجوز أن يكون الدعاء في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ استعارة مكنيّة شبه فيها الخير بعاقل يسأله الإنسان أن يقبل عليه ، فإضافة الدعاء من إضافة المصدر إلى مفعوله (١) .

ومما نستفيده من عرض الآية فنوظّفه لما يصلح به واقعنا المؤلم في هذا العصر هو أن تكون ثقتنا بربنا عالية ورباطنا به قوي فنهتدي بهديه ونستقيم على طريقه فلا نتقلّب ولا نضعف ولا نرائي ولا نغتر بالسراء ولا نجزع من الضراء ولا نفقد الأمل ولا نيأس أو نقنط بمجرد أن يمسنا الشر وإذا دعونا بالخير فلا ندعوا لأنفسنا فحسب بل علينا أن ندعوا لأمتنا ولإخواننا اللذين سبقونا بالإيمان .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (لابن عاشور) : ٣٨٣٣/١ .

المطلب الرابع

نزول الغيث بعد القنوط

قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

والغيث : المطر وسمي الغيث غيثا لانه يغيث الخلق وقد غاث الغيث الأرض أي : أصابها . وعن الأصمعي : قال مررت ببعض قبائل العرب وقد مطروا فسألت عجوزاً منهم : أتاكم المطر ؟ فقال : غثنا ما شئنا غيثا ، أي : مطرنا(١) والغيث المطر الذي يأتي بعد الجفاف ولأنه يغاث به المضطرين كما قال تعالى: ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (٢) والغيث ما كان نافعا في وقته والمطر قد يكون نافعا وضارا في وقته قاله الماوردي(٣) ، ﴿مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ أي من الغيث بعد انقطاع أمارات الغيث المعتاده وضيق الوقت عن

---

(١) ينظر : الصحاح مادة غيث : ١٢٦/٤ .

(٢) سورة يوسف الآية: ٤٩ .

(٣) معالم التنزيل : للبغوي : ١٢٨/٤ .

الزرع (١) ، ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ قيل : المطر وهو قول السدي ، وقيل : طلوع الشمس بعد المطر (٢) ، قرأ ابن كثير (يُنَزِّلُ) وهو من القراء السبعة بـ (يُنْزِلُ) باسكان النون وتخفيف الزاي ، وقرأ الباقون : (يُنَزِّلُ) بفتح النون وتشديد الزاي(٣) .

قال مقاتل نزلت هذه الآية في حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا ثم انزل الله المطر (٤) . ولعل ما ذكره (مقاتل) أريد به الرواية التي وردت في الصحيحين ، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما دعا قريشا كذبوه واستعصوا عليه فقال (اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأتاه ابو سفيان فقال : يا محمد إن قومك قد هلكوا فادع الله أن يكشف عنهم فدعا ، ثم قال : تعودون بعد)(٥) وقد كان هذا في المدينة . ومما يؤيد مضمون هذه الرواية رواية الإعرابي ، الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المطر يوم الجمعة في خبر الاستسقاء من حديث أنس رضي الله عنه قال : (بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يخطب على المنبر يوم الجمعة ، قام إعرابي فقال : يا رسول الله ،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (لابن عاشور) : ١/١٣٧١ .

(٢) معالم التنزيل (للبغوي) : ٤/١٢٨ .

(٣) ينظر السبعة (لابن مجاهد) : ١٦٥ ، والتيسير (لابي عمرو) : ٧٥ ، والنشر (لابن الجزري) : ٢/٢١٨ .

(٤) معالم التنزيل (للبغوي) : ٤/١٢٨ .

(٥) صحيح البخاري : ١/٣٤١ باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم اجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف ، وصحيح مسلم : ٤/٢١٥٥ .

هلك المال ، وجاع العيال فادع الله أن يسقينا)(١) وهذا جانب من جوانب فضل الله على عباده في الأرض ، وقد غاب عنهم الغيث وانقطع المطر ، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول ... الماء ... وأدركهم اليأس والقنوط، ثم ينزل الغيث والمطر ، وينشر رحمته ، فتحيا الأرض ، ويخضّر اليابس ، وينبت البذور ، ويلطف الجو ، وتنطلق الحياة ، وتتفتح القلوب ، وينبض الأمل ، ويفيض الرجاء ، ... وما بين القنوط والرحمة إلاّ لحظات ، تتفتح فيها أبواب الرحمة فتتفتح أبواب السماء بالماء(٢).

﴿ **وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ (**الولي**) : الذي ينصر أولياءه (**الحميد**) : المحمود بكل لسان (٣) .

وعندما نمعن النظر في سياق الآية سوف نخرج ببعض اللطائف والدلالات الآتية :

١. التعبير بالماضي في قوله تعالى ﴿ **مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا** ﴾ فيه إشارة إلى حصول القنوط وتقريره بمضيّ زمان عليه .

٢. صيغة القصر في قوله تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ** ﴾ تفيد قصر الغيث عليه لان في السامعين مشركين يظنون أن نزول الغيث من تصرف الكواكب .

---

(١) صحيح البخاري : ٣٤٩/١ ، باب من تمطر في المطر حتى يتحادر على لحيته ، (٩٨٦)

(٢) ينظر : في ظلال القران : ٢٨٨/٧ .

(٣) معالم التنزيل للبغوي : ١٢٨/٤ .

٣. إن اختيار لفظ (**الغيث**) يوحي معنى الغوث والنجدة وإجابة المضطر في حال الضيق والكربة ، والغيث ما كان نافعا في وقته بخلاف المطر فقد يكون نافعا أو ضارا و كلاهما .

٤. إن نزول الغيث بعد الجفاف وتفتح النبات في الأرض يزيل هموم القلب وتعب النفس .

٥. في الآية إشارة إلى أهمية نزول الرحمة والوحي ونشر رحمة الإسلام وإنقاذ البشرية مما عانت وتعاني منه على مر العصور والأجيال ، وأي غيث أفضل واجل من كتاب الله وأي قلب اطهر من قلب محمد ﷺ فهو الرحمة المهداة التي نشرت رحمة الله التي امتدت لتنال الكون كله .

٦. يمكن الاستدلال من قراءتي (**ينزِّل**) بتشديد الزاي وفتح النون ، وقراءة (**يُنزِل**) بإسكان النون وتخفيف الزاي وكسرها على أمرين :

الأول : أن قراءة (**ينزل**) بالتشديد تشير إلى أن نزول الغيث يكون على تدرج مرة بعد أخرى .

الثاني : أن قراءة (**ينزل**) بإسكان النون وتخفيف الزاي وكسرها يدل على أن نزول الغيث يمكن أن يكون دفعة واحدة نحو قوله تعالى: ﴿ **وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً** ﴾ (١) .

---

(١) سورة النبأ الآية : ١٤ .

٧. إن الله جعل في نزول (**الغيث**) رزقَ كثير من الأحياء وفي نزوله تذكير بهذه النعمة العظيمة على الناس والتي فيها معظم رزقهم الحقيقي .

٨. ذكر صفتي (**الولي الحميد**) دون غيرهما لمناسبتهما للإغاثة ؛ لأن الولي يحسن إلى مواليه و(**الحميد**) يعطي ما يحمد عليه ووصف حميد فعيل بمعنى مفعول (١) .

فالآية تدعونا أن لا نسأل ولا نستغيث بمخلوق إلا الله وحده لا شريك له فهو القادر على أن ينزل الماء الذي هو أساس الحياة ومادتها إذ لا حياة بدونه لا لحيوان ولا لنبات وهو القادر على أن يجعله غوْرا إذ لا أحد غيره سبحانه يستطيع أن يأتينا به فلنستغث به وحده ولنشكره على آلائه ونعمه التي ملأ بها صفحات الكون كله .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (لابن عاشور) : ٣٨٧١/١ .

المطلب الخامس

دعوة المسرفين إلى عدم القنوط من رحمة الله

قوله تعالى :﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

إن عموم كلمة (**عبادي**) وعموم صلة ﴿ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ﴾ يشمل أهل المعاصي من المسلمين وان المقصود الأصلي المشركين على عادة الكلام البليغ من كثرة المقاصد والمعاني التي تفرغ في قوالب تسعها (١) . (**والإسراف**) الإكثار والمراد هنا الإسراف في الذنوب والمعاصي نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ﴾(٣)

﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ أي : لا تيأسوا من رحمة الله ومن مغفرته ، ثم لما نهاهم عن القنوط اخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه ويجعل الرجاء مكانه (٤) ، فقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ والآية دعوة لجميع العصاة ؛ من الكفرة وغيرهم إلى

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (لابن عاشور) : ٤٤/١ .

(٢) سورة النساء الآية :

(٣) سورة الاسراء الآية :

(٤) فتح القدير (للشوكاني) : ٦٩/٤ .

التوبة والإنابة وقد أخبرت بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب ورجع عنها مهما كانت وان كثرت ولو كانت مثل زبد البحر ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة لان الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه (١) ، وقد وردت أكثر من قراءة تؤكد على هذا المعنى منها :

ما رواه حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن اسماء (رضي الله عنها) انها سمعت النبي ﷺ يقرأ : (**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم – لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي انه هو الغفو الرحيم**) وفي مصحف ابن مسعود (**إن الله يغفر الذنوب جميعا لمن شاء**) (٢) وهاتان القراءتان حملتا على التفسير ، والمعنى : أي يغفر الله لمن شاء وقد عرّف الله عَزَّ وَجَلَّ (**من شاء**) أن يغفر له ... وهو التائب من عمل صغيرة ولم تكن له كبيرة ودل على انه يريد التائبَ ، فالتائب مغفور له ذنوبه جميعا يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ ﴾ (٣)

وسبب نزول الآية يؤكد على قبول توبة العبد مهما بلغت ذنوبه وخطاياه **فممّا ورد في هذا المعنى :**

ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : أن أناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فأتوا محمد ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن أن لما عملنا كفارة فنزل:

---

(١) تفسير القران العظيم (لابن كثير) : ٥٩/٤ .

(٢) القراءة الشاذة (لابن خالويه) : ١٣٢ .

(٣) سورة طه الآية :٨٢ .

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ (١) إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾(٢) ونزل (٣) : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ويمكن لنا أن نستشف من قولهم (**أن لما عملنا كفارة**) يعني : أنهم قد سمعوا الآيات التي تتحدث عمن عمل تلك الأعمال وإلا فمن أين علموا أن تلك الأعمال جرائم وهم أهل جاهلية . وكذلك ما روي عن محمد بن اسحق عن نافع عن ابن عمر قال : لما اجتمعنا على الهجرة إتّعدت انا وهشام بن العاصي بن وائل السهمي وعياش بن ابي ربيعة بن عتبة فقلنا : الموعد (**أضاة**)(٤) بني غفار وقلنا : من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه فأصبحت انا وعياش بن عتبة ، وحبس عنا هشام ، واذا به قد فتن فافتتن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله عزّ وجلّ وءامنوا برسول الله ﷺ ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة وكانوا هم أيضا يقولون - في أنفسهم فأنزل الله عزّ وجلّ في كتابه : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا

---

(١) سورة الفرقان الاية : ٦٨

(٢) سورة مريم الاية : ٦٠

(٣) صحيح البخاري : ١٨١١/٤ ، الجزء الخاص بالتفسير .

(٤) أضاة : الغدير من الماء ، ينظر لسان العرب : ٩١/١ .

تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (١) قال عمر رضي الله عنه : فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام ، قال هشام : فلما قدمت عليّ خرجت بها إلى ذي طوى فقلت : اللهم فهمنيها فعرفت انها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيدي ، فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

ويظهر لنا فضل هذه الآية وقيمتها من خلال ما يأتي :

١. ما رواه الطبراني من طريق الشعبي عن سعيد ابن اشكل انه قال وسمعت ابن مسعود رضي الله عنه يقول : أعظم آية في كتاب الله : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٣) وان اجمع آية في القران خير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (٤)وان اكثر آية في القران فرجا (٥) : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ . فقال مسروق : صدقت (٦).

---

(١) سورة الزمر الاية : ٦٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٤٧٥/١ ، ١٧٦ ، واسباب النزول (للواحدي) : ٣٩٠ ، ٣٩١

(٣) سورة البقرة من الاية : ٢٥٥

(٤) سورة النحل من الاية : ٩٠ .

(٥) المعجم الكبير للطبراني : ١٣٣/٩ : رقم (٨٦٥٩) .

(٦) تفسير القران العظيم (لابن كثير) : ٥٩/٤ .

٢. " قال عمرو بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر به ركب فارسل اليهم وسألهم من هم فقالوا : جئنا من الفج العميق فقال : اين تريدون ؟ قالوا : نؤم البيت العتيق ، فرجع اليه الرسول فأخبره ، فقال عمر : إن لهؤلاء لنبأ ، ثم ارسل اليهم فقال لهم : أي آية في كتاب الله احكم قالوا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾⁽¹⁾ فقال أي آية اعدل ، فقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ قال : فأي آية اعظم قالوا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قالوا : فأي آية أرجى قالوا : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وهذه الآية أرجأ آية في كتاب الله لاشتمالها على أعظم بشارة)⁽²⁾ لانه "أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم ، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب ، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط ، من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب .. ثم جاء بما لا يبقى بعد شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فالالف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق افراده فهو في قوة : إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان .. فيالها من

---

(١) سورة الزلزلة الآية : ٧ ، ٨ .

(٢) تفسير الصنعاني : ٣/٣٨٩ .

بشارة ترتاح له قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بالله .. الخالعين لثياب القنوط " (١) .

وأورد ابن كثير في تفسير ، ما سأله آدم عليه السلام لربه جل جلاله إذ قال : يارب قد سلطته عليّ – الشيطان – وإني لا امتنع إلا بك ، قال الله تبارك وتعالى : لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء ، قال تعالى : زدني ، قال : الحسنة عشرة أو أزيد ، والسيئة واحدة أو امحوها ، قال : يا رب زدني ، قال : باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد ، قال : رب زدني قال(٢) ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ .

وبعد التأمل والنظر في الآية الكريمة يمكن لنا أن نستنبط منها بعض اللطائف والدلائل الاتية :

١. إن الله تعالى أضاف المؤمنين إلى نفسه بياء الاضافة فقال ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ وشرف الاضافة اليه يفيد الامن من العذاب .

٢. وفي قوله ﴿أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ معنى يفيد أن ضرر الذنوب عائد على المسرفين لا على الله تعالى فلا حاجة إلى الحاق ضرر اخر بهم فيكفيهم ما هم فيه .

---

(١) فتح القدير (للشوكاني) : ٤/٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(٢) تفسير القران العظيم (لابن كثير) : ٤/٦١ .

٣. في قوله تعالى ﴿**لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**﴾ نهى عن القنوط ، وفيه إشارة إلى الامر بالرجاء والكريم إذا امر بالرجاء فلا يليق به الكرم .

٤. في قوله تعالى ﴿**لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**﴾ اضاف الرحمة إلى اسمه الاعظم (الله) الجليل ولم يضفها إلى الياء فيقول (لا تقنطوا من رحمتي) لان الرحمة المضافة إلى اسمه الاعظم – يجب أن تكون اعظم انواع الرحمة والفضل .

٥. إن في تكرار لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى ﴿**لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**﴾ **ثم قوله** ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**﴾ واقتران هذا اللفظ بـ (إن) لاعظم وجوه التاكيد على رحمته ، كما انه اردف ذلك باللفظ الدال على التأكيد (جميعا) ، وهذا ايضا من المؤكدات ، وكل ذلك يدل على المبالغة بالرحمة .

٦. إن الله تعالى وصف نفسه بالغفور ، ولفظ (الغفور) يفيد المبالغة على وزن : فعول .

٧. أن الله تعالى وصف نفسه بكونه : (رحيما) والرحمة لها فائدة مع المغفرة ففي قوله تعالى : ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ**﴾ إشارة إلى ازالة موجبات العقاب وفي قوله : (الرحيم) إشارة إلى تحصيل موجبات الرحمة والثواب .

٨. إن قوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يفيد الحصر . ومعناه : انه لا غفور ولا رحيم إلا هو ، وذلك يفيد الكمال في وصفة سبحانه بالمغفرة والرحمة ، ونسأل تعالى أن يجعلنا واياكم من الفائزين بها والناجين من العقاب بفضله ورحمته(١) .

---

(١) ينظر مفاتح الغيب للإمام الرازي : ٣,٤/٢٧

الخاتمة

لقد تم بحمد الله ومنه وحسن توفيقه إنجاز هذا البحث وقد خلصت من هذه الجولة العلمية بالنتائج الاتية :

١. القنوط من رحمة الله واليأس من روحه محرم في الشرع وهو من الكبائر.

٢. القنوط صفة من صفات الكافر فهو يبطر عند النعمة ويقنط عند الشدة فهو لا يشكر عند الأولى ولا يحتسب عند الثانية .

٣. القنوط آفة صارفة للعبد عن التوبة وباعثة له على البقاء على حالة ارتكاب الذنوب والاستكثار منها من غير توبة ، وهو الإصرار المفضي إلى استحكام الهلاك .

٤. القنوط من رحمة الله يناقض ما وصف الله تعالى به نفسه من الرحمة والمغفرة والفضل والسعة والعفو .

٥. للقنوط من رحمة أثر خطير في حياة العبد ؛ لان العبد إذا شعر انه لا سبيل إلى رحمة الله ورضوانه فانه سيكثر من الذنوب المشتهاة ، ولان الدنيا تصبح في نظرة ميدانه الوحيد .

٦. إن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها وتراجع عنها ، ولا تصح المغفرة من غير توبة إذ الشرك – مثلا – لا يغفر لمن لم يتب منه .

٧. إن القانط من رحمة الله يعتقد أن الله لا يغفر له ، اَمّا : لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ، واَمّا : أن لا تطاوعه نفسه على التوبة ، بل هو مغلوب معها والشيطان قد استحوذ عليه ، وهذا يعتري كثير من الناس .

وأخيراً اسأل الله تعالى أن يحفظ أمة سيدنا محمد ﷺ من اليأس والقنوط الذي أصابها ، ومن كيد الكافرون ومكر الحاقدين ، وأن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو يئسنا أو قنطنا إنه لا ييأس من روحك إلا القوم الكافرين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

❖ **بعد القران الكريم :**

١. **الاتقان في علوم القرآن** : للسيوطي (ت٩١١هـ) وبهامشه اعجاز القران للباقلاني ، دار الندوة الجديدة، بيروت – لبنان ، ب. ت.

٢. **أساس البلاغة** : لجارالله الزمخشري (ت ٥٣٨) ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٩م .

٣. **أسباب النزول** : للواحدي ، طبعة دار الكتب العلمية ، ١٤٠٠هـ .

٤. **إعراب القران** : لابي جعفر النحاس (ت ٣٨٨هـ) تحقيق : د. زهير غازي زاهد طبعة ، عالم الكتب ، ١٩٨٨م .

٥. **بهجة المجالس** : لابن عبد البر ، تحقيق : محمد مرسي الخولي ، طبعة دار الكتب العلمية ، ب. ت .

٦. **تفسير التحرير والتنوير** : للإمام الشيخ : محمد بن عاشور ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، (ب. ت) .

٧. **تفسير القران** : للصنعاني (ت ٢١١هـ) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤١٠هـ .

٨. **تفسير القران العظيم** : لابن كثير (ت٧٧٤هـ) ، دار الفكر بيروت ، (ب. ت) .

٩. **التفسير الكبير المسمى مفاتح الغيب** : للامام الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) المطبعة البهية المصرية ، ١٣٥٧هـ .

١٠. **التيسير في القراءات السبع** : لابي عمرو الداني ، تحقيق : اوتو برتزل ، طبعة دار الكتاب العربي ، ١٩٨٤م .

١١. **جامع البيان في تأويل آي القران** : للطبري (ت٣١٠هـ) ، دار الفكر، بيروت _لبنان ، ١٤٠٥هـ .

١٢. **الجامع لاحكام القران** : للقرطبي (ت٦٧١هـ) تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن وآخرون ، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦م.

١٣. **خزانة الأدب** : للبغدادي ، تحقيق : عبد السلام هارون ، طبعة مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٨١م.

١٤. **السبعة في القراءات** : لابن مجاهد . تحقيق : د. شوقي ضيف ، طبعة دار المعارف بمصر

١٥. **السيرة النبوية** : لابن هشام ، تحقيق : مصطفى السقا وغيره ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٥٥م.

١٦. **الشعر والشعراء** : لابن قتيبة ، تحقيق : احمد شاكر ، طبعة دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦م.

١٧. **الصحاح** : للجوهري تحقيق : احمد عبد الغفور عطار ، طبعة دار الكتاب العربي بمصر (ب.ت)

١٨. **العين** : للفراهيدي (ت ١٧٥هـ) تحقيق : د. مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي ، دار الهجرة ، ايران ، ١٤٠٥هـ .

١٩. **فتح القدير** : للشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) طبعة دار الفكر ، ١٩٦٤م.

٢٠. **الفقه على المذاهب الاربعة** : عبد الرحمن الجزيري اعتنى به نجيب الماجدي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٥م .

٢١. **في ظلال القران** : لسيد قطب ، دار أحياء التراث العربي ، طبعة السابعة ، ١٩٧١م.

٢٢. **القاموس المحيط** : للفيروزابادي (ت ٨١٧هـ) مؤسسة الرسالة بيروت ، ١٤٠٦هـ .

٢٣. **القراءات الشاذة** : لابن خالويه ، تحقيق : ج : برجشتراسر ، طبعة مكتبة المتنبي ، القاهرة ، ب.ت .

٢٤. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل** : للإمام الزمخشري (ت ٥٢٨هـ) ، دار الكتاب العربي (ب. ت) .

٢٥. **لسان العرب** : لابن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١هـ) ، دار صادر بيروت (ب. ت) .

٢٦. **مختار الصحاح** : للرازي (ت٦٦٦هـ) ، دار الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٣م.

٢٧. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل المعروف بتفسير النسفي :** للنسفي (ت٧١٠هـ) ، دار القلم دمشق ، ١٤١٥هـ .

٢٨. **معالم التنزيل :** للبغوي (ت ٥١٦هـ) تحقيق خالد العك ومروان سوار ، دار المعرفة بيروت ، ١٩٨٦م .

٢٩. **معاني القرآن :** لابي جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) تحقيق محمد علي الصابوني ، طبعة جامعة ام القرى ، ١٩٨٨م .

٣٠. **معجم مقاييس اللغة :** لأبي لحسين احمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الفكر بدون تأريخ .

٣١. **المعرب :** للجواليقي تحقيق : احمد شاكر طبعة وزارة الثقافة ، القاهرة : ١٩٦٩م

٣٢. **مفردات الفاظ القران :** للراغب الاصفهاني (ت ٥٠٥هـ) تحقيق : صفوان عدنان داود ، دار دمشق ط١ ، ١٩٩٦م.

٣٣. **موسوعة المسلم في التوبة والترقي :** لمنير البياتي دار النفائس الاردن ط١ ، ٢٠٠٦م.

٣٤. **النشر في القراءات العشر :** لابن الجزري ، تحقيق : علي محمد الضياع ، طبعة دار الكتب العلمية (ب . ت) .

٣٥. **النكت والعيون :** للماوردي ، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية ودار الكتب العلمية ، (ب. ت.).